سقوط المدينة في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري
التحوّل والهزيمة.

أ/ أعبيد بشير
جامعة جيجل

المدينة– المأساة الوطنية:

ارتبط الشعراء القدامى بالمكان وأكثروا من الوقوف على الأطلال، والحنين إلى الدار والأهل، وكانت المدن قرينة للأوطان والأرض، وتبقى الدراسات التي تناولت المدينة في الشعر العربي قليلة، وقد يعود ذلك "لضعف اهتمام النقاد بهذا الموضوع قديما"[1]، ويشكل بذلك ما نظم عن مراثي المدن استثناء يأتي ضمن شعر المحن وبكاء الدول يستظل بظلال غرض الرثاء، وهو ما يستند إليه البحث في مقاربته لشعرية المدينة، ولا ينظر إليه مثلما نظر إليه بعض الدارسين بعد المدينة " المكان الذي يشكله الخيال ويبنيه في اللغة على نحو يتجاوز حدود الواقع الفعلي، ليس المكان الفني أبعاد هندسية وحسية وخارجية، وإنما هو صورة جمالية عما الذات وتضفي عليها من ذاكرتها الحضارية التاريخية أبعادا لا نهائية، وقد لا نعثر على شعرية المدينة سوى لدى الشعراء الذين يتخذون المكان تجربة كيانية شاملة، ويحولون موضوعه إلى قضية كلية ويشكلون منه صورة ورمزا وإيقاعا أي بنية تجسيد رؤية عميقة إلى العالم ".[2]

ويقترب الحديث هنا من المفهوم الذي أقره ج- جونسون (J-H Johnson)، ويحدد مفهوم شعر المدينة بأنه: "الشعر الذي يصف مدينة واقعية وصفا مباشرا، أو يصف البشر الذين تتأثر حياتهم بتجربتهم في مثل تلك المدينة تأثرا واضحا، ومعنى هذا أن اختياري لن يتضمن الأحلام والرؤى والأوهام والخيالات التي لها علاقة واقعية أو لا علاقة لها البتة بالمدينة الواقعية "[3]ويلغي بذلك المدن المتخيلة اللاواقعية.

لقد ارتبط الإنسان الأندلسي بأرضه، ورآها جنة، وهو في القرن الخامس الهجري "واحد من الخلق الذي يعيش في مكان يؤثر في تشكيله وبنائه، ويؤثر هذا المكان في أدق

نفاصيل حياة الشاعر، وأهم تشعباتها، فلا جرم أن نجد انعكاسات كثيرة ودلالات مختلفة لهذا التأثر والتأثير بين الإنسان الشاعر ومكانه"[4]، والتركيز على الجوانب المأساوية التي ساهمت في رسم قتامة مشاهد الفواجع، وتجاوبت معها آهات الشعراء وهم يستشعرون مصاب الاقتلاع المدينة والغربة التي طوحت بهم في مدينة قصية لتضيف إلى قلوبهم الملتاعة وأنفسهم المفجوعة مشاهد احتضار مدنهم، وتوالي سقوطها فصلا من فصول هزائمهم، وهو ما دفع صاحب كتاب (المكان في الشعر الأندلسي) إلى أن يطلق حكمه متأثرا بمأساوية الخطوب التي عضت الإنسان الأندلسي حين قال: "لا أعلم فيما أعلم أن بلادا أحاطت بها الرعاية والعناية مثل بلاد الأندلس من حيث الاهتمام بها من مناحي الحياة المختلفة، لما أسبغ الله- عز وجلّ – عليها من أسباب الثراء والنعيم والترف، ولما منحها من مظاهر الجمال والطبيعة الساحرة التي تبهج القلوب وتسحر العيون، ولذا؛ كان فقدُ هكذا مكان بمثل هاته الأسباب والمظاهر فقدا مؤلما على قلوب أهله وأبنائه في حقبهم المختلفة "[5].

يعد سقوط المدن في الأندلس في القرن الخامس الهجري من أهم الظواهر التي وقف عندها الشعر الأندلسي مسجلا هذا الحدث التاريخي المهم، وقد كان من الشعراء "من نظر من زاوية مصلحة الأمة في الوحدة والقوة وإبقاء رسم الجهاد، وكان فيهم من نظر من زاوية أخرى إلى زوال تلك الدول التي كان أكثرها يرعى الأدب والأدباء، ويشجع الشعراء على المدح والثناء، ويغدق عليهم العطايا، فنظم شعرا في زوال تلك الدول ورثائها أو في مصائر أولئك الأمراء والبكاء على ما مضى من زمانهم "[6].

ولكثرة ما نظم شعراء الأندلس في رثاء مدنهم ودولتهم، والوقوف عند غدر الأيام بها وبهم، صار ذلك فنا شعريا قائما بذاته في أدبهم، بل لقد "استطاع الأندلسيون أن يضيفوا إلى أدبنا الحافل غرضا جديدا، وأن يشدوا إلى قيتارة الشعر العربي وترا طريقا، عزفوا عليه حينا من الزمن لحانهم المؤثرة وأنغامهم الشجية "[7] الحاملة لجذوة المأساة التي أذكت قصائدهم الطافحة بأناشيد الهزيمة .

و تسهيلا للدراسة ارتأينا تقسيم بكائيات المدن إلى:

1- هزائم قوضت أركان المدينة الأندلسية أيام الفتنة، وكان الهازم عدوا في ثوب أخ يجمع بين المهزوم والهازم رباط الإسلام الداعي إلى الأخوة والوحدة .
2- وهزائم كان لأيدي النصارى المتربصين بالمدن الإسلامية لينقضوا عليها الكلمةَ الفصل في صنع النهايات المأساوية.

– المدينة – هزيمة التحول:

بدأ مجتمع المجد والعلم والشعر والسحر والعمران والجمال الموهوب، والمحصن والمبتكر يذوي وينهدم، فكان أمرا طبيعيا أن يرافق الشعر هذه المراحل كلها؛ مراحل الحسن و الجمال، ومراحل الهدم والانحسار والهزيمة الآيلة للتحلل والفناء.

وإذا كان الشعر في المراحل الأولى سعيدا صاخبا، فقد كان في الثانية يائسا حزينا مستصرخا باكيا، وبتصفح الانقلاب الذي أقض مضاجع القرطبيين وهم يقفون عند حقيقة تحول مدينتهم من " ذات البهاء والعظمة والقصور والمنتزهات والحدائق والمساجد؛ مدينة مثل هذه تغنى الشعراء بجمالها وفتنوا بمنتزهاتها "[8] ، بقايا خراب وأنقاض ونهب وتدمير محولة الزهراء الجميلة والزاهرة الفاتنة إلى كومتي رماد، ويتجلى معه شعر الهزيمة ساخطا باكيا يندب المآل الفاجع، ويخلد أبوعامر بن شهيد هذا الحدث الجلل مستفيدا من تجربة الحياة وحكمتها التي استخلصتها الأفئدة المهزومة، واكتوت بنيرانها القلوب المكلومة، وهي تتيقن من أن دوام الحال من المحال، وأن تمام الشيء يفضي به إلى النقصان و الزوال ، يقول:[9]

مَا في الطُّلول مِن الأَحِبَّة مُخْبِرُ	**فَمَنِ الذّي عن حَالِهَا نَسْتَخْبِرُ**
لا تسألنَّ سوى الفراقَ فإنَّهُ	**يُنْبِيكَ عنهم آنْجَدُوا أم أغْوَرُوا**
جَارَ الزَّمانُ عليهم فتفرَّقـوا	**في كل ناحيّة وبادَ الأكثـرُ**
جرتِ الخطوبُ على محلِّ ديارهم	**وعليهمُ فتغيرتْ وتَغَيَّـروا**
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم	**نورا تكاد له القلوب تنـور**
فلمثلِ قرطبة يقل بـكاء من	**يبكي بعين دمـعها متفجر**

دارٌ، أقال الله عثرة أهـلها فتبربروا وتغربوا وتمصـروا
في كل ناحية فريق منهـم متفطّـر لفراقها متـحيِّرُ

ت الشاعر المتحسرة لمآل قرطبة المأساوي فاسحة المجال لنفثات صدور الجماعة ليكون الخطب جمعيا تتجاوب فيه زفرات الآلام وغصص الآهات (نستخبر – عنهم – آنجدوا – أغوروا – عليهم – تفرقوا – باد الأكثر – ديارهم – تغيروا- عرصاتهم – أهلها – تبربروا- تغربوا – تمصروا – فريق منهم – متفطر – متحير)، والمدينة التي جمعت أهلها وأمنتهم وأغد ت عليهم فيض النعم وترنحوا بين جنباتها تقف عاجزة أمام صد جور الزمان (جار الزمان)، ومصير الخطوب النافذ (جرت الخطوب) مقرة هزيمتها مستسلمة لها (فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم)، وما انكسارها إلا نتيجة حتمية لأهلها المهزومين والمتفرقين عنها؛ تفرق تخاذل يفرض لانتماءهم، وتنقصهم عرى الاتصال، ويترسخ (**الفراق**) وينتج عنه الشتات (تبربروا- تغربوا – تمصروا) ولا تجد الجماعة المغلوب على أمرها إلا التفطر للفراق ومداومة الحيرة:

في كل ناحية فريق منهم متفطر لفراقها متحير

ومما يزيد المشاهد مأساوية ويرسم أكبادا تتفطر بعد أن أجبرت على الجلاء من أوكارها التي ألفتها، المرتبطة بأحلى أيام السعادة التي ولّت لا يستطيع الإنسان القرطبي المهزوم سوى تذكرها ليتجدد لها الحزن ولا يتوقف البكاء، يقول ابن شهيد وهو يوازن بين سعادة المدينة وشقائها:[10]

عَهْدي بها والشملُ فيها جامِعٌ من أَهْلِها والعَيْشُ فيها أَخْضَرُ
ورِياحُ زَهْرَتِها تلـــوحُ علَيْهِمُ بروائِـــحٍ يَفترُّ منها العَـنْبرُ
والدارُ قد ضَربَ الكَمالُ رِواقَهُ فيها وباعُ النقصِ فيها يَقْصُرُ
والقَوْمُ قد أَمنـوا تغيُّرَ حُسْنِها فَتَعَمَّمُوا بجَمـــالِها وتأَزَّرُوا
يا طِيبَهُم بقُصُورِها وخُـــدُورِها وبُدُورِها بقُصُورِها تَتَخَــدَّرُ

[...] والزاهِرِيَّةُ بالمَراكِبِ تَزْهَـــــرُ والعامِرِيّةُ بالكَواكِبِ تُعْمَـــرُ
والجامِعُ الأَعْلَى يغصُّ بكُلِّ مَن يتلو ويَسْمَعُ ما يَشاءُ ويَنْظُرُ
ومسالِكُ الأَسْواقِ تشهد أَنَّها لا يَستَقِلُّ بسالِكيها المَحْشَرُ.

تنفتح الأبيات على استحضار ماضي المدينة، وفي ذلك حنين إلى أيامها المشرقة فرارا من ع النكبة وويلاتها؛ فتذكر التجارب السارة يعتقد أنه يُنسي آلام الحاضر " فإذا تذكر المرء تجارب ماضيه السارة فقد تنسيه حاضره المؤلم "[11] وفي حقيقة الأمر هو يعمق الجراح؛ إذ قساوة الحرمان يتحكم في درجتها مدى التمتع بالنعيم، فعلى قدر حظ الإنسان من النعيم يكون حظه من قسوة الحرمان .

والجماعة خبرت السعادة وعايشت الأمن، وتلذذت بشهد مباهج قرطبة (العيش فيها أخضر – رياح زهرتها تلوح – روائح العنبر – الكمال – أمنوا – تعمموا بجمالها – تأزروا)، فالأحوال سعيدة، والمكان بهيج (قصور – دور – الزاهرية – مراكب تزهر – بالكواكب تعمر – مسالك الأسواق تشهد)، وفي ذلك قمة التنعم المعبر عنه بكمال الطيب (والدار قد ضرب الكمال – يا طيبهم) الذي حقق الأمن والاستقرار (والقوم قد أمنوا).

وقد سبق الإشارة إلى أن الشيء إذا تم وكمل فليتوقع بداية الزوال والانحدار وستصنع الهزيمة هذه النهاية ليعلو صوت ابن شهيد يصور مشاهدها ويعزف على أوتارها ألحان الانكسار، يقول:[12]

يا جَنَّةً عَصفَتْ بها وبأَهْلِـــــــها رِيحُ النَّوى فتَدَمَّرتْ وتَدَمَّـــــرُوا
آسَى علَيْك مِن المَماتِ وَحقَّ لِي إِذ لم نَزَلْ بك في حَياتك نَفخَرُ
[...] يا منزلا نزلـــــــــت به وبأهلـــه طير النوى فتغيروا وتنكـــــــروا.

وتبرز ثنائية (صلاح ، فساد) تعادل (ارتفاع ، انكسار)، وتحمل الأبيات الحد الثاني من الثنائية (عصفت – تدمرت – تدمروا – نزلت – تغيروا – تنكروا) تعبر عن الهزيمة التي أبطالها (ريح النوى – طير النوى)، ولعل في الصورتين (الريح – الطير) دلالات العقاب

الذي يؤ ل بالأشياء إلى النهايات المريعة لتحليل الحياة الزاهية إلى أثر بعد عين كأنها لم تفن؛ فالأمم القديمة كثيرا ما عوقبت بالريح الصرصر[13]، وطير الأبابيل[14].

ولا يغادر البحث بكائية ابن شهيد في فردوسه قرطبة وهو يجعل مصيبتها تعم الجماعة دون أن يعرج على فكرة الطلول (ما في الطلول من الأحبة مخبر) التي ربطها شوقي ضيف بالذكريات والسعادة المرتبطة بالوطن المؤججة لجذوة الحنين حين قال: " وهل حياة العرب في الماضي إلا حنين و إلا ذكرى [...]، وما بكاء الأطلال والديار إلا الصورة الثابتة لهذا الحنين الذي نما معهم على مر الزمن واختلاف المنازل والأمكنة، إنه امتداد للروح العربية "[15]، وهو ما دفع دارسا آخر إلى ربط حنين الشاعر/ الباكي والطلل بقضية الإفراغ واتخاذ استعادة الذكريات ساليب تهدئة يفرغ إليها باكي الطلل في أوقات الحرج والحزن "ويحاول استرجاع الفردوس المفقود، ويشكل بذلك شكلا من أشكال مقاومة الانصياع، أو لنقل هو مظهر لاشعوري من مظاهر إدانة الزمن المسروق"[16] محققا صيانة التماسك الداخلي للذات، وهو ما يدفع البحث إلى مخالفة هذه النتيجة؛ إذ تبين له وهو يقف عند مأساة مدينة قرطبة من خلال ابن شهيد وابن حزم[17] أن الشاعرين لم يحاولا مقاومة الانصياع بأي شكل من الأشكال، واستترت ذات كل منهما خلف أصوات الجماعة المعبر عنها بضمير الغائب للجماعة (هم) الحامل لدلالة النفي والتغييب، الممتزج بدلالات التيئيس وفقدان الأمل في دعوة الماضي، وبدا له أن الثنائية التي أقرها صاحب كتاب الشعرية العربية[18] وهو يربط الطلل بثنائية (الغياب و الحضور) أنها في أصلها ثلاثية الأطراف (غياب ، حضور ، غياب)، كما هو مضح في الشكل التالي:

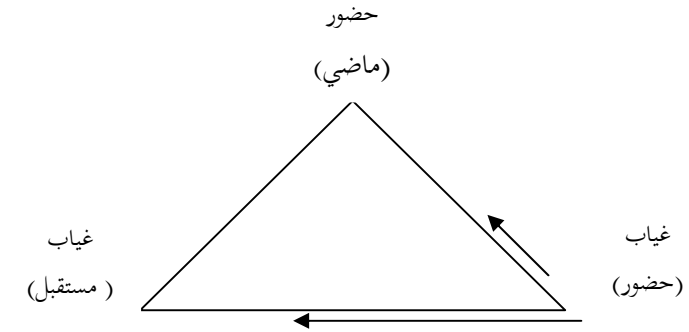

وهو ما يجعل البحث ينتهي إلى أن بكائية المدينة الأندلسية في القرن الخامس المقرة للتحول المأساوي كرست صورة الهزيمة التي لا أمل في تغييرها وهو ما ستظهره دراسة مأساة مدينة إلبيرة التي أفل نجمها، وخبت أيامها النيرة، وضاقت بأهلها، وحركت شاعرية أبي إسحاق الإلبيري، وهو يرصد لحظات المحنة ويتتبع انكسار الجماعة، يقول:[19]

يُضيّعُ مفروضٌ ويُغفل واجبُ	وإنِّي على أهل الزمان لعاتبُ
أَتَنْدُبُ أطلالَ البلادِ ولا يُرَى	لإلبيرة منهم على الأرض نادبُ
على أنَّها شَمْسُ البلادِ وأُنْسها	وكلُ سواها وحشةٌ وغياهبُ
وَكَمْ من مجيبٍ كان فيها لصَارِخٍ	تُجَابُ إلى جَدْوَى يَديْه السَّبَاسِبُ
وكم بلغت فيها الأماني وقُضِّيَتْ	لصبٍّ لُبَانَاتٌ بها ومَـآرِبُ
وكَمْ طلعتْ منها الشُّمُوسُ ومَشَتْ	على الأرض أقْمَارٌ بها و كَوَاكِبُ
وكم فرستْ فيها الظِّبَاءُ ضَرَاغمًا	وكم صرعتْ فيها الكُمَاةَ كَوَاعِبُ
لَعَهْدِي بها مُبْيَضَّةَ اللّيلِ فاغْتَدَتْ	وأيَّامُهَا قد سَوَّدَتْهَا النَّوَائبُ
وما كان فيها غيرُ بُشْرَى وأَنْعُمٍ	فلم يبق فيها الآن إلاَّ المَصَائبُ
غَدَتْ بعد رباتِ الحِجَالِ قُصُورُها	يَبَابًا تُغَادِيها الصَّبَا والجَنَائبُ

يستخدم الشاعر في التعبير عن حالة الإحباط التي استشعرها صوت ذاته المكتفية بالتحسر على أحوال الأحبة المفجوعين بخراب مدينتهم، ويرتفع صوت آهاته بعد أن تيقن أن آمال عودة عهود الصبا وأيام المسرة والبهجة استحال إيابها، ويرتفع الاستفهام المنحرف عن أصل معرفة ما يجهل إلى دلالات الحيرة واليأس (أتندب أطلال البلاد) لتكون الهزيمة الجماعية مضاعفة لم يكف فيها ذرف دموع الاستسلام بعد التيقن من أن ما ذهب لا يعاود الرجوع وإنما عجز قاطن إلبيرة- من هول المصاب- عن بكائها والتحسر عليها وهو يقف مندهشا مذهولا، لا يصدق انقضاء المباهج عنها وهي العامرة بها، وهو ما يقره تكرار(**كم**) التكثيرية

الخبرية (كم من مجيب كان لصارخ – كم من نجيب وعالم – كم بلغت الأماني وقضيت لصب لبانات ومآرب – كم طلعت منها الشموس – كم مشت على الأرض أقمار وكواكب – كم فرست الظباء ضراعما- كم صرعت الكماة كواعب) لترتبط هذه الدلالات بكثرتها وأخبارها اليقينية المحققة بالمكان (فيها- أنجبته- فيها – بها – منها – بها – فيها – فيها) الذي شكل مع الزمان – (كان – كانت) اللذين جمعا الأحبة– ثلاثية الهزيمة ليجتمع الزمان والمكان والجماعة في تجرع كؤوسها ولا يبقى بعد ذلك إلا الحنين الممتزج باليأس بعد أن تحقق التحول وعم الظلام بليله الأبدي الأماني، وهو ما يوضحه الشكل التالي:

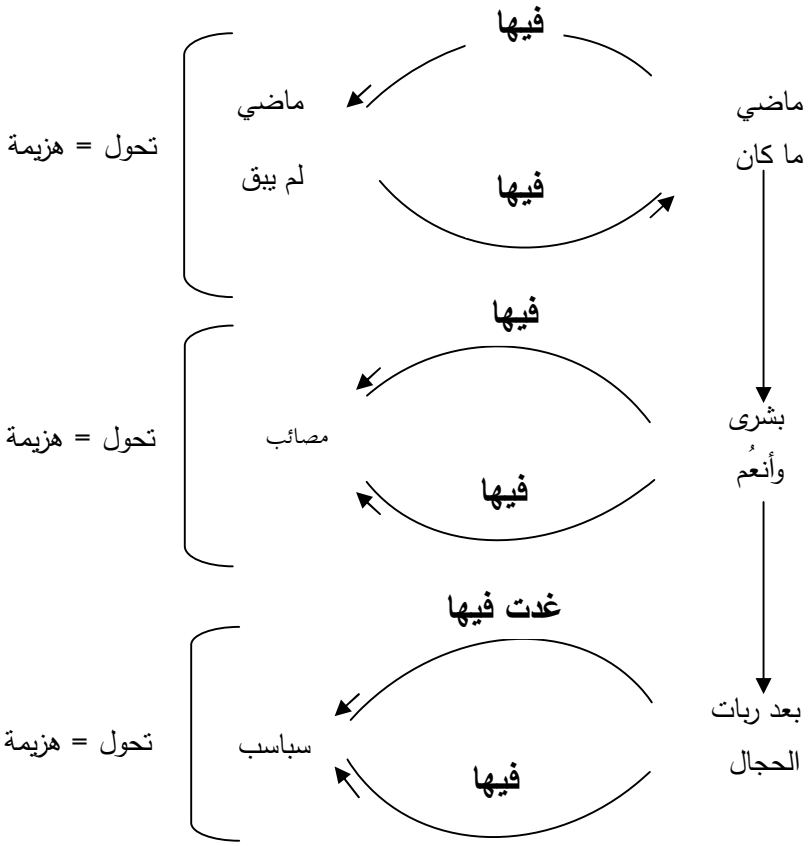

وهذا التحول من السعادة المنقضية إلى الانكسار الثابت المستشعر بالإحباط يدفع الشاعر إلى التعجب بعجب المنكر المخذول الضائع ضياع الأسئلة الباحثة على الإجابات ، يقول:[20]

فَآه أُلوفاً تَقتَضي عَدَدَ الحَصا عَلى عَهدِها ماعاهَدَتها السَحائِبُ
عَجِبتُ لِما أَدري بِها مِن عَجيبَةٍ فَيا لَيتَ شِعري أَينَ تِلكَ العَجائِبُ
وَما فَعَلَت أَعلامُها وَفِئامُها وَأَرآمُها أَم أَينَ تِلكَ المَراتِبُ
وَأَينَ بِحارُ العِلمِ وَالحِلمِ وَالنَدى وَأَينَ الأُكُفُّ الهامِياتُ السَواكِبُ
شَقَقنا عَلى مَن ماتَ مِنهُم جُيوبَنا وَكانَ قَليلاً أَن تُشَقَّ التَرائِبُ.[21]

وينقل الشاعر تجربة الهزيمة من الذاتية (آه – عجبت) إلى هزيمة جماعية يشترك فيها صوته الحزين المتألم مع بقية الأصوات (شققنا جيوبنا – نشق).

ولا تتوقف بكائيات المدن ترسم تحول المأساة الوطنية – وإن اختلفت الأسماء، وتباينت الأماكن لتجتمع في المصير المرير الذي وحدها وصنع نهايتها لتصيب نبالها مدينة ألمرية التي لا تشفع لها مفاتنها في إيقاف الهزيمة فيبكيها شاعرها ابن الحاج اللورقي[22] وقد خلت من أهلها بعد أن تحولوا من ظهرها إلى باطنها وحوتهم قبورها، ويطبع اليأس بكائياتها، يقول في مخمسه:[23]

سقى الحيا عهدا لنا بالطَّاق معترك الألباب و الأحداقِ
وملتقى الأنفس والأشواق أيأس فيه الدهر عن تلاقِ

وربما ساءك دهر، ثم سر

أحسن به مطلعا ما أغربا قابل من دجلة مرأى معجبا
إن طلعت شمس وقد هبت صبا حسبته ينشر بردا مذهبا

بمنظر فيه جلاء للبصر

يا رب أرض قد خلت قصورها و أصبحت آهلة قبورها
يشغل عن زائرها مزورها لا يأمل العودة من يطورها

هيهات ذاك الورد ممنوع الصدر.

لم يبق للجماعة أمام فادحة خراب المدينة واستيلاء الموت عليها إلا الدعاء (سقى الحيا) آملة أن تعود العهود التي حملت المسيرة وأثلجت الصدور (معترك الألباب – ملتقى – أحسن به – مرأى معجبا – طلعت شمس – هبت صبا – ينشر بردا مذهبا – منظر فيه جلاء) وهو دعاء وتوسل يفتقد يقين التحقق راسما معالم الهزيمة الممتنع معها الرجاء (أيأس- لا يأمل- هيهات – ممنوع) مكثفا دلالات الانكسار المتحقق في الحاضر (قد خلت قصورها – أصبحت آهلة قبورها)، ويشترك الشاعر اللورقي مع بقية شعراء الهزيمة الوطنية في عدم التصريح بالهازم الذي أحال الصبح ليلا وحول النور ظلاما والارتفاع انحدارا وانكسارا وينتقل إلى بكاء بني صمادح معبرا عما اختلجت به نفوس الرعية من مآسي وآلام وهي تقف عند حقيقة هزيمتها، وهذه الهزيمة ستشتد وتقوى معها الأنات فترتفع أصوات السخط حين يستولي أعداء الإسلام عليها يعيثون في أرضها فسادا، ويسيمون أهلها أنواع العذاب ويتفننون في إذلالهم، ويحولون مساجدهم كنائس ترتفع أصداء أجراسها وهو ما سيفتح بابا في فصل بكائيات المدن التي لم تتحول من حكم مسلم إلى حكم مسلم آخر، وإنما يتبدل الحكم الإسلامي، ويُحارب باسم النصرانية المتكالبة عليه.

المدينة – انحصار الرقعة:

يفتتح هذا الباب ببكائية المدن التي استولى عليها النصارى، وتصوير الويلات التي أصابت الأندلسيين جراء الحملات الصليبية المعادية التي تشبه حملات الإبادة، فتستأصل كل شيء؛ إذ لم يكن العدو إثر ذلك يقيم وزنا للمعاهدات والمواثيق التي تبرم[24]، وكان ذلك نتيجة فساد سياسة الحكم التي " ألمت بشبه جزيرة ايبرية منذ سقوط الخلافةالأموية، وانفراط عقد الرقعة الأندلسية وتوزعها على شكل ممالك ودويلات صغيرة في أوائل القرن الخامس الهجري [...]، وأدت هذه الظروف إلى حالة من التوجس والتوقع والترقب لدى الأندلسيين، وأوجدت إحساسا بالرعب المستمر والخوف المتسلط

لى الحواس من العدوان الخارجي المتربص بهم باستمرار "،[25]وقد صور الشاعر انفعال الجماعة واختلفت الصور باختلاف النكبات ومدى وقعها في نفوسهم فمنهم من توسل وخاب توسله وطفح يبكي بكاء اليأس ومنهم من استصرخ واستنجد فلم يجد آذانا صاغية وأدرك أن هلال دولة الإسلام بدأ يتهاوى حاملا دلالات انحسار الرقعة ليفسح ل لصليب النصاري يشوه المعالم ويستبيح الحرمات وينتهك الأعراض وتبدأ مآسي المدن الأندلسية التي تكالبت عليها كلاب النصارى المسعورة ببكائية ابن العسال[26] لمدينة **بربشتر**[27] التي كان سقوطها "أعظم حادث أو بعبارة أخرى أعظم محنة نزلت بالمسلمين هو غزو النورمانيين لمدينة بربشتر وفتكهم بأهلها بأشنع وأفظع ما سجلت صحف التاريخ "[28].

وتركز عدسة الشاعر المصور للهزيمة الجماعية على النماذج الإنسانية المتعثرة في مصيرها المأساوي؛ فالنسوة عانين من الاستباحة والأسر وإذلاله، والأطفال يتركون صرعى يتخبطون في دمائهم، والرضع مهملين بعد إفتاك أمهاتهم، ناهيك عن الشيوخ الذين لم يحترم لهم وقار ولم ترع فيهم شيخوخة أو عجز، يقول:[29]

ولقد رمانا المشركون بأسهم	**لم تخط لكن شأنها الإصماء**
هتكوا بخيلهم قصور حريمها	**لم يبق لا جبل ولا بطحاء**
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها	**في كل يوم غارة شعواء**
باتت قلوب المسلمين برعبهم	**فحماتنا في حربهم جبناء**
كم موضع غنموه لم يرحم به	**طفل ولا شيخ ولا عذراء**
ولكم رضيع فرقوا من أمه	**فله إليها ضجة وبغاء**
ولرب مولود أبوه مجدل	**فوق التراب وفرشه البيداء**
ومصونة في خدرها محجوبة	**قد أبرزوها مالها استخفاء**

وعزيز قوم صار في أيديهم فعليه بعد العزة استخذاء

وتنفتح البكائية بتأكيد حدوث الفاجعة التي ركزت عليها عدسة ابن العسال وقد امتزجت ذاته بذوات الجماعة (ولقد رمانا) ويصرح بالهازم (المشركون بأسهم)، وهو ما يجعل هذه الصورة تخالف الصورة التي وقف عندها البحث وهو يستعرض فواجع الجماعة التي صنعتها أيدي الإخوان الذين أحالهم الطمع حينا، والخوف حينا آخر أعداء، جاعلا الهازم الدهر والأيام ولم يذكر معه هذه الوقائع التي أحدثها النصارى، والتي شهد المؤرخ **المستشرق يوسف أشباخ** بافتقادها الإنسانية مؤكدا أنها حرب إبادة لم ترحم صغيرا ولا كبيرا يقول:" كان النصارى الإسبان كلما أمنوا انتقام خصومهم ازدادوا وحشية وعنفا ولم يكن الشيوخ والنساء، بل الأطفال بمنجاة من سفكهم "[30]، وهو ما دفع الشاعر المتكلم بلسان حال الجماعة يصور ما آلت إليه المرأة المسلمة المسترقة المباحة المعذبة المستذلة (هتكوا – قصور حريمها– مصونة في خدرها– قد أبرزوها) فالعذراء المحجبة التي كانت لا تبرز حتى للمسلمين غدت سافرة الوجه عارية الشعر، جسمها منالا لعدوها المسيحي الغاصب، والرضيع الذي كان في كنف أمه لم يشفع له بغاؤه وضجته وكريم القوم خبر على أيدي أعداء الإسلام مرارة الذل، وتبرز ثنائية (قوة النصارى ، ضعف المسلمين) المكافئة لثنائية (انتصار ، انهزام)، ويحمل الحد الأول دلالات:

- بأس، هتكوا، جاسوا، غارة شعواء، برعبهم، غنموه، فرقوا، أبرزوها، في أيديهم = القهر والبطش = المشركون / الهازم. ويحمل الطرف الثاني معاني:

- رمانا، لم يبق، جبناء، ضجة، بغاء، مجدل، فرشه البيداء، مالها استخفاء، استخذاء = الإذلال والهزيمة = جماعة المسلمين / المهزومين.

لتتأكد هزيمة الجماعة وانكسارها وتحولها من العز إلى الخضوع ولا تحاول بذلك أن تغير مصيرها (فحماتنا في حربنا جبناء) مستسلمة بجلادها المتحكم في مصيرها وهوى ما

توضحه دلالات النفي المرسخة للانتفاء والعجز والخنوع، فقد عدمت الفاعلية وحل محلها يأس الانحدار، وتذرف دموع الهزيمة (لم تخط – لم يبق لا جبل – لا بطحاء – لم يرحم – لا شيخ – لا عذراء – مالها).

ولا يختلف بكاء بربشتر عن بكاء طليطلة فالهازم واحد لا رحمة في قلبه ولا شفقة، يتفرد بوضع النهاية وتحديد عمق الهزيمة، والمهزوم مستسلم يرتوي بآهاته ويستمرئ غصص المحن، يقول شاعر مجهول مقرا بأحوال هزيمة الجماعة بعد أن تحولت دار الإيمان إلى دار تُدق فيها النواقيس تخفي أصوات المؤذن:[31]

لقد خضعت رقابٌ كنَّ غُلْبًا وزال عتُوُّها ومضى النُفُورُ
وهان على عزيز القوم ذل وسامح في الغريم فتى غيور
طليطلة أباح الكفر منها حماها إن ذا نبـأ كبير
فليس مثلها إيوان كسرى ولا منها الخورنق والسدير
محصَّنَةٌ محسَّنةٌ بعيدٌ تناولها ومطلبها عسير
وأُخرج أهلها منها جميعا وصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمانٍ وعلمٍ معالمها التي طمست تنير
فعادت دار كفر مصطفاة قد اضطربت بأهلها الأمور
مساجدها كنائس أي قلب على هذا يقرُّ ولا يطير

يبرز التحول من الارتفاع (غلبا – عتوها – نفورها – عزيز – غيور) وما يحمل من دلالات العز الذي تفيأت بظلاله الجماعة في مكان حمل دلالات الشرف والعفة (محصنة – محسنة – بعيد تناولها – مطلبها عسير) وتجتمع الجماعة والمكان بالزمان المشرق حين يرفل الإيمان والعلم في جنبات طليطلة الغراء ويرتبط كل ذلك بالماضي، وذكريات الحنين (كنا – كانت)

ويتحقق التحول بدلالات الأفعال (صاروا – فعادت) لتشمل الهزيمة هذه الثلاثية؛ فالجماعة (خضعت – زال – مضى – هان – ذل – سامح- أخرج) والمكان هُزم بأن (أباح الكفر – طمست – أعاد الدار كفرا – اضطربت – مساجدها كنائس) والزمن؛ الاثنين معا، وغابت معالم الحاضر عنه تحقيقا للهزيمة، وإثباتا لاستمراريتها (لقد خضعت) لتكون بذلك إجابة الحاضر عن استفسار الجماعة المنحرف عن أصله (أي قلب على هذا يقر ولا يطير) في محاولة استشراف المستقبل هي تحقق الهزيمة وديمومتها، ويبقى الأسف يتكرر بتكرار الدهور:[32]

فيا أسفاه يا أسفاه حزنا يكرر ما تكررت الدهور

أذيلت قاصرات الطرف كانت مصونات مساكنها القصور

وكان بنا وبالقينات أولى لو انضمت على الكل القبور

لقد سخنت بحالتهن عين و كيف يصح مغلوب قرير ؟

لئن غبنا عن الإخوان إنا بأحزان و أشجان حضور

فالنسوة يستصرخن فلا يجدن من الرجال صريخا، وهم المنشغلون بما هم فيه من هزيمة، لا ستطيعون أن يحركوا ساكنا غير الدموع التي لا تجدي نفعا، وكثيرا هم المصابون بهول الهزيمة ؛ الكارثة، لترتسم مشاهد الذل ومعاناة القهر والإهانة، وتتوقف الجماعة عند أحزانها وأشجانها، **وتعجز** حتى عن إماتة أنفسها **لتمنع** خذلان الآخر وعبثه بكرامتها وعزها، وهي تتيقن من أن موتها أولى بها، فتتضاعف الهزيمة وترسخ، ويطول أمدها:

وكان بنا وبالقينات أولى لو انضمت على الكُلِّ القبور

ستمر بكائيات المدن وتتلاحق الهزائم، وتهتز الجماعة لهول الفاجعة مستشعرة اليأس من عودة أيام النعيم، مستسلمة للجحيم الذي أرغمها النصارى على معايشته، وتَضم بلنسية[33] هزيمتها إلى هزائم أهلها، ويبكيها شاعرها ابن خفاجة وهو يرى الخراب الذي عم الأرجاء فيصاب بالذهول لهول الكارثة، ويفقد توازنه؛ فالمصيبة كبيرة والمحنة عظيمة، يقول:[34]

عاثت بساحتك العدا يا دارُ ومَحَا محاسنكِ البِلى و النَّارُ

فإذا تردد في جنابك نـاظر طال اعتبار فيـك و استعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمـخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها (لا أنت أنت ولا الديار ديار)

وتحيل دلالات (عاثت) على الازدراء المقترن بالوحشية الذي يفيض كراهية وضغينة، وهو يرتبط بـ (العدا) وما فيها من دلالات الكثرة، وهي كثرة معروفة يركز فيها الشاعر على معاني الحقد والبغضاء، ويلتصق ذلك بالمكان لتنحرف الباء وهي تحمل دلالة الظرفية (**في**)، وهو ما يعمق أهوال المصاب ويحقق دلالات الفعل الحدث المأساوي(محا) كأن محاسن بلسنية لم تكن وقد أفناها البلى والتهمتها النيران؛ فهي الرماد الذي تذروه الرياح، ولا يبقى إلا نداء التحسر يكرس هزيمة المكان (يا دار) ويكون أهلها/ جماعة هم الرماد لا تتقاذفه العواصف وحسب، بل لا يستقر له قرار، وما في ذلك من دلالة دوام الهزيمة. ولم يبق إلا الزمان ليرسم مثلث الهزيمة، وهو ما يفصح عنه البيت الأخير حين يجعل الانكسار أبديا ويوقف التحول عند النهاية التي آل إليها المكان وانتهت إليها الجماعة.

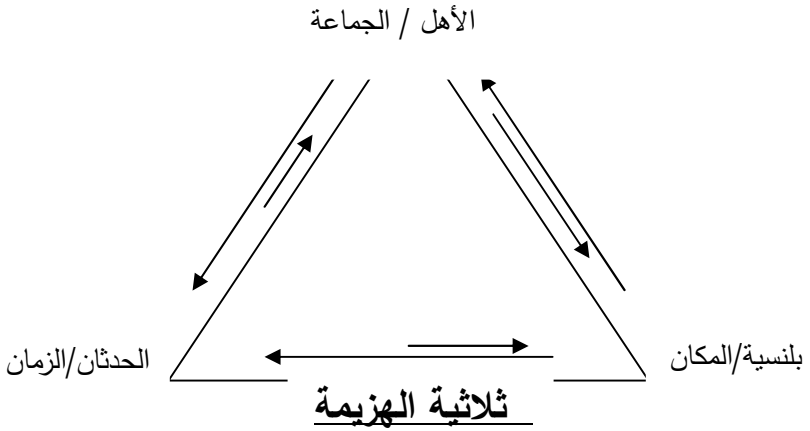

ثلاثية الهزيمة

ارتأيت وأنا أتناول بكائيات المدينة التي عاث في ساحتها النصارى أعداء الإسلام أن أتوقف قليلا عند قصيدة أبي الوليد الوقشي[35] وهو يرسم معالم هزيمة هذه المدينة (بلنسية) أمام **السِّيدْ الكمبيدور**[36]، وهي التي ضاع أصلها العربي ولم يوجد منها إلا ترجمة للمضمون؛ ترجمة لنثر في عامية أهل الأندلس، ونثر قشتالي[37]، ويعتمد ترجمة الطاهر أحمد مكي التي جاء منها [38]:

بلنسية بلنسية...مصائب كبيرة تحدق بك أنت تحتضرين إذا قدر لك النجاة فسيراها عجيبا من يعيش

و يراك ...

[...] شرفاتك البيضاء تشرق من مسافات بعيدة فقدت آمالها عندما بدت لأشعة الشمس .

[...] لا يوجد دواء لمرضك العصي، والأطباء يائسون وليس في وسعهم أبدا أن يعيدوا لك صحتك كاملة بلنسية ...بلنسية كل هذه الأشياء التي أعددتها أومن بها، قد قلتها وألم أسيف يملأ قلبي.

يرسخ النص التحول من عز الماضي إلى ذل الحاضر والمستقبل جاعلا الهزيمة خاتمة هذا التحول، وصورة احتضار المدينة تجعل الموت وشيكا، وهو ما تؤكده (فقدت – عبثت – لم تعد – لا يوجد دواء – يائسون) المحققة للهزيمة الأبدية (وليس في وسعهم أبدا).

الهوامش:

1. إبراهيم رماني. المدينة في الشعر العربي الجزائري (1925 -1962). المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر. 2002. ص 05.
2. ابراهيم رماني. المرجع نفسه. ص 05.
3. JOHNSON. J.H.THE POET AND THE CITY. THE UNIVERSITY OFGEORGIA .PRESS. 1984 .P18
4. محمد عويد محمد ساير الطربولي. المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. مصر. ط1. 2005 . ص10.
5. محمد عويد الطربولي. المرجع نفسه. ص 326 .

6. محمد رضوان الداية. في الأدب الأندلسي. دار الفكر المعاصر. بيروت– لبنان. ط1. 2000. ص 149 .

7. عمر الدقاق. ملامح الشعرالأندلسي. منشورات جامعة حلب. سوريا. 1978. ص 324 .

8. فورار أمحمد بن لخضر. الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري. مخطوط شهادة دكتراه الدولة في الأدب العربي القديم. كلية الآداب واللغات. جامعة منتوري. قسنطينة .2004 – 2005 . ص 136.

9. ابن شهيد الأندلسي. ديوانه ورسائله. ص 76 .

10. المصدر نفسه. ص 76، 77 .

11. شكري عزيز الماضي. محاضرات في نظرية الأدب. دار البعث. قسنطينة– الجزائر. ط1. 1984. ص117.

12. ابن شهيد الأندلسي. ديوانه ورسائله .ص 77 .

13. انظر: الآية 6 من سورة الحاقة.

14. انظر: الآية 3 من سورة الفيل.

15. شوقي ضيف . دراسات في الشعر العربي المعاصر. دار المعارف. مصر. ط 6. ص263 .

16. يوسف اليوسف . الغزل العذري (دراسة في الحب والمضمون) دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. ط2 .1982. ص43 .

17. انظر: قصيدته المصورة للهزيمة الجماعية التي لحقت أهل قرطبة والتي يقول فيها :

سلام على دار رحلنا وغودرت خلاء من الأهليين وحشة قفرا

تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعا ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا

[...]فصبرا لسطو الدهر فيهم وحكمه وإن كان طعم الصبر مستثقلا مرا

كأنك لم يسكنك عبد أوإنس وصيد رجال أشبهوا الأنجم الزهرا

تفانوا وبادوا واستمرت نواهم لمثلهم أسكبت مقلتي العبرا

وأني ولو عادت وعدنا لعهدها فكيف عن من أهلها سكن القبرا.

ابن الخطيب. أعمال الأعلام أو صفة جزيرة الأندلس. تح: ليفي بروفنسال. دار المكشوف. بيروت– لبنان. ط2. 1956.ص 104،105 .

18. انظر: نور الدين السد. الشعرية العربية، دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي. ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر. ط1. 1995. ص 83.

19. أبو إسحاق الإلبيري. الديوان. تح: محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط1. 1976.ص73، 74.
20. المصدر نفسه . ص 74 .75 .
21. الفئام: الجماعة من الناس. اللسان. مادة فأم، الأرآم: يراد بها هنا الأولاد. انظر اللسان. مادة رأم.
22. أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي، من مدينة يقال لها لُرقَة عاش إلى ما بعد الخمسمائة. انظر: العماد الأصفهاني الكاتب. خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس. تح: آذرتاش آذرنوش. نقحه وزاد عليه: محمد المرزوقي. محمد العروسي. الجيلاني بن الحاج يحي. الدار التونسية للنشر. تونس. 1972.ج 2: 139.

23. العماد الأصفهاني. الخريدة. 2: 141.
24. انظر: محمد رضوان الداية. في الأدب الأندلسي. ص 160.
25. محمد مجيد السعيد . الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس .ص 307 .
26. هو عبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبي، يعرف بابن العسال، ويكنى بأبي محمد، لم نجد في المصادر التي ترجمت له تأريخا لميلاده غيرما وجدناه في ترجمة ابن بشكوال له أنه توفي سنة 484هـ أنظر: ابن بشكوال.الصلة. ص 344 .
27. بربشتر: من مدن الثغر الأعلى الفائقة في الحصانة البائنة في الإمتناع تقع بين لاردة ووشقة [على بعد 60 كم] شمال شرقي سرقسطة. انظر: الحميري. الروض المعطار. ص 39 ،40. وهي أول المدن التي سقطت أمام الزحف النصراني على الأندلس فيما سماه الإسبان حرب الاسترداد وذلك سنة 456هـ. انظر: عبد الله محمد الزيات. رثاء المدن في الشعر الأندلسي. ص 197، 198.
28. محمد عبد الله عنان. دولة الطوائف. ص 275. وقد روت كتب التراجم تفاصيل هذه الحادثة بإسهاب وبعبارات مؤثرة ومبكية؛ ذلك أن حملة كبيرة من النورمانيين نزلت بشاطئ قطلونية وسارت نحو الشرق مخترقة أراضي مملكة= = سرقسطة الشمالية. على أنه يبدو من جميع الظروف أنها كانت من الحملات الناهبة التي تستتر بالصفة الصليبية والتي تقصد العبث والنكاية والغنم والسبي في أراضي المسلمين أينما كانت، ويؤيد البحث الحديث هذه الصفة الصليبية للحملة. للمزيد من الإطلاع ينظر: الحميري. الروض المعطار. ص 40.
29. الحميري. المصدر نفسه. ص 40، 41.
30. يوسف أشباخ. تاريخ االأندلس في عهد المرابطين والموحدين. تر: محمد عبد الله عنان. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. المعهد الخليفي لتطوان. القاهرة . 1940. ص427.
31. المقري. نفح الطيب. 5: 369.

32. المقري. نفح الطيب . 5 :370.

33. بلسنية : قاعدة من قواعد الأندلس الكبرى بينها و بين البحر 3 أميال، وهي على نهر جار ينتفع به و يسقي المزارع. للاطلاع أكثر انظر: الحميري . الروض المعطار . ص 47. استولى عليها النصارى سنة 457هـ، بعد أن حصروها مدة عشرين شهرا حتى "أكلوا الفيران والكلاب والجيف وغدوا كالأشباح هزالا". ابن بسام الذخيرة. 2/3: 848

34. المقري. المصدر السابق. 345 .

35. أبو الوليد هشام بن أحمد الوقشي الكناني (408 هـ – 489هـ) تولى القضاء سنة 438هـ حين دخل العدو بلسنية كان فيها ، فالتزم قضاءها ثم خرج إلى دانية فمات فيها ، أنظر : ياقوت الحموي. معجم البلدان. 8 : 430.

36. الكمبيدور أو الكنبيطور: فارس قشتالي، اسمه الأصلي : رودريجو أوروى دياث دي بيبار، أما تلقبه بالسِّيدْ elcid فهو تحريف لكلمة السّيد بالعربية، وقد أطلقها عليه الذين كان يخدم بينهم و يحارب معهم، كما يوصف بالكمبيادور .elcampeader والتي تعني المحارب الباسل. انظر: ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ص 203، محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام في الأندلس. ص 232.

37. قام الطاهر أحمد مكي بترجمتها إلى العربية. انظر : الطاهر أحمد مكي. دارسات أندلسية ، ص 251.

38. الطاهر أحمد مكي . المرجع نفسه . ص ص 259 .260